now.mmedia.me

NOW
23 نيسان 2010

"زقاق الهجرات: زقاق البلاط، أشلاء من ذاكرة حيّ بيروتي"، وثائقي لـ"كريم حكيم"

"زقاق الهجرات"، فيلم وثائقي بتوقيع كريم حكيم. يروي الفيلم على مدى 33 دقيقة، سيرةالتحولات الاجتماعية في حيّ "زقاق البلاط" البيروتي الذي تحوّل من تجمّع سكني لبعض البورجوازية اللبنانية - لا تزال أبنية فخمة كثيرة تشهد على ماضيها - الى منطقة سكنية شعبية بامتياز... (الفيلم أنجزته "أمم للأبحاث والتوثيق" في إطار مشروع "زقاق البلاط: من الأبجدية الفينيقية الى النهضة، دروب ووجوه"، وقد بُرمج عرضه الاثنين 19 نيسان في تمام الثامنة مساءً في مقهى الكونتي قرب جامع زقاق البلاط – آخر شارع أمين بيهم).

فكرة أبصرت النور

الوثائقي هو فكرة مشتركة بين كريم حكيم والمخرجة روان ناصيف. يروي حكيم أن الفكرة أبصرت النور مع طلب مشروع "زقاق البلاط : من الأبجدية الفينيقية الى النهضة" من "امم "، كونها تعمل على ذاكرة الحرب وذاكرة بيروت، إجراء مقابلات مسجّلة صوتياً لحفظ الذاكرة الشفهية. "وكلّفت أنا بهذه المهمة. اقترحَت عليّ صديقتي روان ناصيف، وهي مخرجة، فكرة عدم الاكتفاء بذلك والعمل على انجاز فيلم وثائقي...وهذا ما حصل بعد نيل دعم "أمم ".

زقاق البلاط هو مسرح لذكريات تعود الى طفولة حكيم. هذه الذكريات ولّدّت عنده رغبة باستقصاء تاريخ هذا الحيّ والذي عنى ويعني له الكثير. يتذكّر مثلا أنّه "كانت تسكن "قصر مخيّس" في زقاق البلاط عائلات تربطها بعائلته علاقات صداقة... (يقول) "وكنّا نسهر عندهم في رأس السنة". في هذا القصر كانت تعيش عائلات منير مخيّس وبهاء رفاعي. "هذه تجربة تخلق حشرية" يقول حكيم. يلفت النظر التناقض بين هذا البيت الفخم وباقي البيوت في المنطقة وفي بيروت. هذا التناقض البصري ينمّي حشرية تحث على فهم سبب وجود هذا التناقض. كذلك تلفت في المنطقة تعددية هويات السكان بين أرمن وأكراد وشيعة وسنة ومسيحيين ".

تسجيل للذاكرة الشفهية

الفيلم استند الى العمل التوثيقي الذي سجّل شهادات شفهية عدّة. قبله ظهر فيلم يضم ذكريات لسكان المنطقة. ويظهر فيه كيف كان السكان يستخدمون اللغات التركية والارمنية والفرنسية، وكيف كان طعام البورجوازيين يحتوي على اللحم على عكس طعام الفقراء، إضافة الى ذكريات عن شخصية الساحر داهش الذي كان يسكن في "قصر حنَيْنِه"... "أجرينا 25 ساعة من المقابلات المصوّرة. الفيلم الأول كانت مدته 25 دقيقة".

بدأ العمل على وثائقي "زقاق الهجرات" بعدما طلبت "امم " من حكيم "إعادة الفيلم الأول وفق إشكالية اوضح". عندها تكوّنت إشكالية الفيلم: "قدمت فكرة الهجرات في المنطقة منذ تأسيسها والى الآن، وكيف تغيّرت هوية المنطقة بفعل الهجرات المتعددة التي شهدتها". وبدأت المرحلة التنفيذية بمساعدة آن دومو، التي، كما قال حكيم "قدمت ليّ نصائح عدّة ناتجة عن خبرتها في مجال صناعة الأفلام، وساعدتني في المونتاج". وقام حكيم بمقابلات جديدة أضيفت الى تلك التي كان قد قام بها لتحقيق هدفه.

موجات هجرة غيّرت معالم الحيّ

يعرض الوثائقي تاريخ حيّ زقاق البلاط البيروتي والتغيّرات الاجتماعية التي شهدها قاطنوه من خلال سبر ستّة مراحل من الهجرة التي شهدتها هذه المنطقة.

المرحلة الاولى عرضت تحت عنوان "هجرة 1 (1840 – 1920): ضاحية "العائلات" والمخمل". وفيها عرض المهندس المعماري عاصم سلام الذي يقطن في زقاق البلاط لنشأت بيروت حين ولادة الوسط التجاري، مستعرضا كيف كانت بيروت مدينة محاطة بأسوار لها أبواب تُقفل ليلاً: باب يعقوب، باب ادريس، باب الخان. (يتابع) "كان الوسط التجاري كالقاعة في البيت، تحيطه تلال: تلة الاشرفية، تلة المصيطبة، تلة زقاق البلاط وتلة برج أبو حيدر".

بدوره روى منير مخيّس، أحد مالكي "قصر مخيّس" تاريخ هذا القصر: "جدتي كانت تقول لجدّي: يا باشا متى ستبني لنا بيتاً؟ كان ثرياً جداً. بدأ تعمير البيت سنة 1880، وتوقف العمل حوالي خمس سنوات، ثم استكمل وانجز سنة 1905. هذا يعني أن البيت احتاج الى 20 سنة لكي ينجز بديكوره. جاء المعماريون من مدينة Venise، وهؤلاء علّموا آل المصوّر المهنة، فاستكملوا العمل".

موجة الهجرة الثانية حملت عنوان "هجرة 2 (1845 – 1920): طريق القدس تمر ببيروت...". في هذا القسم تحدث الأب مكرديش كشيشيان، راعي كنيسة مار نيشان للأرمن الأرثوذكس، عن تاريخ بناء هذه الكنيسة في المنطقة الذي يعود الى العام 1845، وهي "هي اول كنيسة ارمنية اورثوذكسية في لبنان". يروي كيف شيّدت هذه الكنيسة على أرض كانت تابعة لبطريركية القدس. كانت هذه الكنيسة ومحيطها محطة للحجاج الأرمن على طريقهم الى القدس. "تعمرت الكنيسة في هذه المنطقة لأن التمركز الارمني كان فيها قبل انتقاله الى برج حمود".

في القسم الثالث، "هجرة 3 (1920 – 1957): عمال أممية الازدهار"، يروي رمضان فتاح، مسؤول جمعية الأرز الثقافية الرياضية الكردية، قصة الهجرات الكردية الى زقاق البلاط منذ عشرينات القرن الماضي. "اضطر الاكراد بسبب القحط وعدم الاهتمام الى الهروب من ولاية ميردين، فتوجهوا من هناك واستوطنوا مناطق حلب قبل انتقالهم الى الشام. ثم رأوا مجالاً للعمل في بيروت. وكان استيطانهم الرئيسي في زقاق البلاط".

كما يستذكر المواطن محمود حمادة، المتحدر من قرية النميرية في الجنوب، بدايات الهجرة الشيعية الى بيروت بسبب الاوضاع الاقتصادية.
ويستذكر الأب كشيشيان بدء الارمن بالقدوم بأعداد كبيرة، بعد المجزرة الأرمنية سنة 1915.
موجة "هجرة 4 (1958): "يا رب اتطخ بعينو"، هي موجة الهجرة التي حدثت بعد أحداث 1958. يروي حمادة، أنه وشباب الحيّ "كنّا غاويين يعطونا شي بارودة، هذا كان غرامنا لكي نقول انا معي بارودة ما حدا بيسترجي يحكي معي". كما يروي المواطن فؤاد المصري كيف "كانوا يقوّسوا وكنا نقوّس على المناطق. بس كيف كنا نقوّس: يا رب اتطخ بعينو". كانت كل الطوائف موجودة في زقاق البلاط. ولكن بعد هذه الأحداث حصل فرز بسبب الهجرة المسيحية والارمنية.

سبّبت الخطط التنموية التي نفذها الرئيس فؤاد شهاب موجة "هجرة 5 (1958 – 1974): جسر الشهابية الى بيروت". إنشاء الجسر الذي يحمل اسم الرئيس الراحل "الرينغ حسب التسمية الشعبية" تسبب بهدم بنايات وبيوت من اوتوستراد التباريس الى برج المر، فرحلت أغلبية قاطني زقاق البلاط الاصليين .

موجة الهجرة الأخيرة، "هجرة 6: (1975 – 1990): هجرات على متن حروب"، اتت بفعل الحروب التي عاشها لبنان. مع بدء الحرب الأهلية، "ترك المسيحيون بسبب الخوف رغم انه في الحقيقة لم يعتد عليهم احد"، يروي سلام. وفور رحيلهم حلّ مكانهم المهجرون من النبعة والدكوانة. وفي ما بعد، بدأت هجرات أهل الجنوب على اثر الحروب الاسرائيلية على لبنان.

تجربة العمل الأول

يشير حكيم الى أنه كان يرغب في تطوير المقابلات مع الناس، "لأن الشخص عندما يتعوّد عليك وعلى الكاميرا، سيتذكر يوميات الحياة التي عاشها بسلاسة أكبر. ولكن الوقت لم يكن كافياً للقيام بذلك".

وبرأيه، "الفيلم لا يتنفس. بين الكلام والكلام، جميلٌ الصمت. كانت المشاهد الصامتة قليلة، وكانت المعلومات تمرّ على دفعات سريعة. وسأعمل في أعمالي اللاحقة على زيادة هذا الصمت. من خلال الصورة يستخلص المشاهد الفكرة".

هذا هو نقده لتجربته الاولى في صناعة الأفلام الوثائقية.

يرى، هو الذي أحبّ الإخراج، أن فيلمه "يبقى عبارة عن سرد تاريخي، و"التاريخ هو اختصاصي في الجامعة"، كما يقول. أما هدف الفيلم فهو أن "يحمل رسالة تاريخية، وهدفه تقديم المعلومات حول منطقة زقاق البلاط بشكل خاص وحول مدينة بيروت بشكل عام". ويبدي حكيم رغبته في تقديم أفلام وثائقية أخرى تعرض تاريخ الأحياء البيروتية.

في نهاية الوثائقي الذي يحمل عنوان "جيران الرضى والمعمار الأعمى"، ينتقد المهندس سلام الفوضى العمرانية التي حلّت على زقاق البلاط. يقول: "أرتاح للاختلاط الطبقي الحالي اكثر من الانعزال الطبقي الذي كان موجوداً في الماضي. الذي لا يريحني هو الفوضى العمرانية فيها. "بصرياً يؤذيني". يتفهم تغيّرات نسيج سكان الحيّ الإجتماعي، ويرى أنها طبيعية في مسار تاريخ الأماكن، فـ "في اي مجتمع يصير هناك تغيير. مدينتي واشنطن وجورج تاون في اميركا كان سكانها سود. جاء البيض وحلّوا مكانهم".